Coptology

حوارات في تدبير المبتدئين

(١)

الحياة الأرثوذكسية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٦

www.coptology.org

تمهيد:

هذه السطور والصفحات نُقلت من أحاديث مع شيوخ الرهبنة جُمعت في الفترة ما بين ١٩٥٩-١٩٦٤ وقد تركت الأسماء عن عمدٍ؛ لأن الأسماء ليس لها أهمية، والأهم من كل الأسماء هو التعليم. قد ترى فيها ملامح أبونا مينا المتوحد، أو أبونا فليمون المقاري، أو أبونا متى المسكين، ويقين القارئ هو المرجع.

لا يوجد ترتيب للموضوعات المطروحة؛ لأن كل حوار كان يتم بشكل عفوي غير مرتَّب، وكان التدوين يتم في نفس اليوم، أي أنه تم نقل التعليم كما سمعته. وفي تعليم الشيوخ (بستان أو فردوس الآباء) تجد العبارات التالية: قال شيخ، أو قال الأنبا أنطونيوس، أو الأنبا بيمن، أو يوحنا القصير. هذه الأقوال نُقلت من الذين سمعوها وعاشوها ثم دُوِّنَت. ولكن هنا يتم التدوين بعد السماع بساعات، وكان التدقيق ضرورياً. صحة التعليم أهم من كل الأسماء ومرجعية التعليم هي الأسفار والتسليم الكنسي في كتب الصلوات الأرثوذكسية.

الحوار الأول

+ كيف أحيا الحياة المسيحية الأرثوذكسية؟

+ الجواب: عليك أن تكون على حذر من أن تسعى وراء كَمٍّ من المعلومات، أو تظن أنك بالتوسع في القراءة تكون قد وصلت الى معرفة الحق. كن على حذر من أن تسقط في فخ الكم؛ لأن الكم فيه إغراء شديد يمس حب الفضول، ويمس أيضاً شيئاً دقيقاً جداً في النفس، وهو الخلاص بواسطة المعرفة.

حتى الصلاة لا يجب أن تكون حسب الكم.

يعني تقول لنفسك النهاردة أنا صليت ساعة، أو صليت ١٠ مزامير، المحبة الحقيقية لا تعرف الكم، ولا تزن أي شيء بميزان الكم. ولذلك قال ربنا يسوع المسيح إن كأس ماء بارد هو عطية محبة، واعتبر أن مجرد زيارة مريض هو عمل محبة. حاسب على نفسك من الكم ودوَّر (ابحث) عن النوع. ما هو نوع محبتك للرب؟ يعني فيه (هناك) شخص بيحب الرب يسوع محب البشر كسيدٍ غضوب قاسٍ، ولا يرضى هذا الشخص بنعمة التبني بل يصلي كعبد إلى أن ينوِّر ربنا يسوع قلبه وفكره، ويحس (يشعر) قلبه بمحبة الرب يسوع، ويتعلم من المحبة إزاي (كيف) يصلي كابن. علشان كده عاوزك دايماً تفكر في أول خطوة في التدبير، وهي محبة البشر. هو اللي (الذي) جاء إلينا، وهو اللي طلبنا، وهو الراعي الصالح الذي يقود الخراف، والثقة في محبة الرب محب الخطاة، أي محب البشر.

أنا على قد (حسب) فِهمي عارف إن محب البشر تعني محب الخطاة؛ لأن لا يوجد واحد قدوس وكامل إلاَّ ربنا يسوع.

اوعى تقول إزاي (كيف) أوصل لمحبة الرب؛ لأنك لو بديت بهـذا السـؤال هتوه وتفقد الاتجاه الصح، المحبة لا تحتاج إلى بحث، هي بذرة كامنة في كل قلب تلقاها في محبة الأكل ومحبة اللبس ومحبة المديح ومحبة المعرفة، وليها أشكال وأنواع، لكن تنوُّع هذه الأشكال لا يجعل للمحبة أنواعاً كثيرة. هي زي نار، وكل رغبـة في قلـب أي واحد منا تأخذ شرارة علشان تغذي شهوة أو فكرة أو عمـل. الكـلام ده صـعب عليك؟

قلت: لا، بل سهل وواضح، ولذلك ابتسم في وداعة.

فقال لي: الإنسان خُلق لكي يُحب، ولما المحبة بتضل الطريـق وتـروح وراء أشياء غير نافعة تتسجس (تتلوث) المحبة وتبعتر (تبعثر) قوتها وتروح في كـل اتجـاه، فتفقد قوتها زي مية، بدل ما تجري في مجرى واحد، انقسمت وراحت في أكثـر مـن مجرى وضاعت ومحدش قادر يلاحظها. لاحظ أن هذه القوة الخفية اللي فيـك هـي حسب الطبيعة، ولذلك قال الرب: "أحب قريبك كنفسك" يعني محبة القريب تبدأ من محبة الإنسان لنفسه، وتفضل حية طالما الإنسان بيحب نفسه.

واحنا قاعدين هنا في القلاية، لو أنا معنديش محبة، مكونتش قبلتك، ولو أنت بلا محبة مش هتيجي هنا عندي. لكن يا أخ، المحبة الإنسانية دي هي الأساس اللي عليه بيشتغل الروح القدس، واللي فداه الرب يسوع من سلطان الموت، وحرره من الدينونة وسطوة الخطية.

كل عمل للروح القدس له أساس في طبع الإنسان، ولو مافيش أساس يضـع الروح القدس هذا الأساس.

سألته أن يشرح هذه النقطة بالذات، فنظر إليَّ ثم أحنى رأسـه أمـام الـرب كعادته وقال:

الإنسان عنده ذكاء، ولكن الذكاء موش ضروري يكون فيه إفراز، ولذلك يضع الروح القدس نعمة الإفراز. الانسان عنده شجاعة، وتلاقيها واضحة جداً في دفاع الإنسان عن نفسه، ولكن معندوش شجاعة أمام الموت، ولذلك يضع الرب يسوع قوة الصلب والقيامة، ويثبِّت الروح القدس هذه القوة لكي يقبل الإنسان الموت، وهكذا قَبِلَ الشهداء العذاب والموت من أجل الرب. الإنسان يحب الأفضل والأعظم والباقي والدائم، وهي (ملامح وصفات) بحث الإنسان عن الأبدي، ولذلك ينير الروح القدس قلب الإنسان لكي يرى أن الباقي والأبدي هو سُكنى الثالوث فينا "إليه نأتي وعنده نصنع منزلاً". لابد أن نبدأ بما هو موجود فينا لكي ينمو، وهو لن ينمو إلا بالمحبة.

سألته: لماذا المحبة؟

فقال: المحبة هي قوة طبيعية في النفس، ومن النفس ينال الجسد نفسه ذات القوة. هي التصاق وطلب، بل واتحاد. تأمَّل قول الرب نفسه: "يترك الرجل أباه وأمه"، أي الأسرة حيث ولد وعاش، ثم: "ويلتصق بامرأته ويصير الأثنان جسداً واحداً". وقد أضاف رب المجد شرحاً وافياً وموجزاً: "وما جمَّعه الله لا يفرقه إنسان"؛ لكي يمنع اقتحام أي غريب لهذه العلاقة التي صُهرت في أتون نار المحبة. لكن يا أخي المحبوب، المحبة التي تجمع الكل هي محبة الإنسان لنفسه التي يفتديها الرب يسوع، ويفتح عملها على الآخر. ولذلك، عندما يتقدس الإنسان بالروح القدس، تتحول قوة المحبة إلى قوة لا يقف أمامها أي شيء، ولذلك قال سليمان: "المحبة قوية مثل الموت"، ولكن في بركة العهد الجديد، صارت أقوى من الموت، لأنها دفعة القيامة، هي محبة غير قابلة للانحلال، أقصد الموت، هي محبة نالت قوة الرب يسوع نفسه، ولذلك هي محبة مثلثة: الذات مركزها، ولكنها تطلب الآخر، وتبقى في المسيح، أي الذات والآخر والمسيح رب المجد.

سألته: إذن البداية هي المحبة، وماذا عن صلوات السواعي والتسبحة

والقداسات؟

قال: هذه هي قصر الملك، لا يدخلها إلا الأحرار، وفيها عرش الثالوث وإشعاع نور الحياة من الابن ربنا يسوع المسيح، وبمعونة ونعمة الروح القدس.

لعل أعظم أخطاء التدبير في جيلنا هذا، هو أن هذه القصور الملكية تحولت إلى عِشش شحاتين (شحاذين) لأنها فُرضت بالقوة، وصارت فرضاً وقانوناً، فتحولت من مجد الملك إلى عِشة صفيح؛ لأن الذي يدخلها لا يرى فيها إلا الفقر، بينما هي ذهب وأحجار ثمينة. لم نعلِّم الناس كيف تحتوي هذه القصور الملكية على جمال وقوة ومحبة الثالوث.

سألته: أريد شرحاً مستوفياً من أجل نفسي.

قال: معك كل الحق. صلاة المزامير هي متنوعة من طلب الرحمة إلى الصراخ والدموع إلى طلب معونة الرب. وكان يجب أن نعلِّم الشعب كيف يختار المزامير حسب احتياجات الحياة. أنا أحب مزمور ٥٠ "ارحمني يا الله"؛ لأنه طلب رحمة واغتسال من نجاسة الخطية، وهو الاغتسال الذي يفعله روح الحق فينا لكي يطهرنا نحن أبناء الله. ولكن إذا تحول هذا الى فرض، وأصبح من الواجب تلاوة المزمور ٥٠ لمجرد التلاوة، خرج الإنسان من قصر الملك وتحول إلى عبدٍ متسول.

سألته: هل يعني هذا أن لا نتلو المزامير حسب ترتيب الكنيسة؟

قال: أنا لم أقصد هذا؛ لأنك تتحدث عن المنع التام، بينما أنا أتحدث عن الاختيار حسب الحاجة، والفرق كبير بين مَن لا يريد وبين مَن يختار؛ لأن الثاني لا زال في الكنيسة، أما الأول فقد خرج بره الكنيسة.

سألته: في بداية حياتي، منعني أبي الروحي من صلاة الأجبية، وطلب مني أن أصلي إبصاليات لاسم الرب يسوع كل يوم؛ لكي اتَّحد وألتصق بالرب.

قال: هو بلا شك إنسانٌ حكيم، ولابد أنك عُدت بعد ذلك إلى المزامير.

قلت له: نعم، لقد عُدت؛ لأنه قال لي: المزامير مثل مرآة للنفس، تكشف عن عيوب كامنة في النفس، وهي مثل سكين الطبيب يفتح بها خُرَّاجاً عفناً كامناً في القلب مثل خُرَّاج الخوف والتردد. الإبصاليات أهم من المزامير بالنسبة لكل مبتدئ؛ لأنها تزرع في القلب حضور ومشاركة الرب يسوع لحياتنا في كل الأمور، وعلى مدار الأسبوع.

اتحادنا بالرب يسوع هو بداية التدبير الصحيح، وهو الطريق؛ لأنك لابُد أن تكون قد تذكرت أن الطريق هو الاسم القديم المهجور للرب نفسه. هذا ليس فرضاً، بل هو تدفق المحبة من قلب مَن يحب الرب يسوع. ولكن هناك في هذا الطريق صعوبات لا نراها، وعندما أكَّد الآباء الكبار على ضرورة "التغصب"، فقد كانوا يقصدون أمرين:

الأول: الانسلاخ التام عن معطلات الاتحاد؛ لأنها غير نافعة، وقد اختصرت كلمة الإنسلاخ عن قصد؛ لأن السلخ مُتعب وموجع.

ثانياً: طلب الرب الدائم، ولذلك، الإبصاليات ضرورة، ليس كفرض، بل هي مثل شرب الماء وتنفُّس الهواء.

سألته: كيف يهرب الإنسان، أو كيف نقاوم الاقتناع بالفرض؟

قال: الفرض هو حكم الشريعة الموسوية، وهذا ليس له مكان في شركتنا مع وبالثالوث القدوس. الفرض يا أخي هو أنك ترى نفسك مذنباً إذا لم تفعله، ولكن الاتحاد بالمسيح له ثلاثة أهداف:

أولاً: أن تفهم ذاتك في شركتك مع الرب نفسه؛ لأن أي تفهُّمٍ للذات بدون المسيح، قد يطوِّح بك خارج الشركة.

ثانياً: أن يكون لديك الاقتناع التام بأن يسوع المسيح هو رب ومخلص الخطاة، وأنه هو يطلبك قبل أن تطلبه أنت، وهو الذي وضع فيك هذا الشعور الغامض بأن تطلبه.

ثالثاً: إن مصيرك ومصير الرب يسوع واحد، أي المُلك والبنوة والحياة الأبدية. هذا اختيار أبدي.

سألته: عملياً، كيف أبدأ وأنت قد وضعت المحبة كبداية؟

قال: البداية هي أنت، هي فيك، أي في قلبك. إنها ليست نظرية، ولا قانون. أنت البداية، ولذلك، كل ما لديك من قوى ومواهب هي الأساس. المحبة قوة داخلية عقلية، وليست شعورية فقط. هي أيضاً قوة الإرادة، وهي اختيار المصير الأبدي، وهو ذات مصير يسوع: المجد الأبدي ووراثة الملكوت.

لا تبدأ بالخطية؛ لأن هذه البداية سيئة، وقد جعلت كثيرين لا يتقدمون، وظلُّوا على أعتاب الذنب الى ان يشرق الرب عليهم بنور الحياة الجديدة.

قلت: ولكن بداية كرازة الرب في إنجيل مرقس هي: "توبوا وآمنوا بالإنجيل".

قال: نعم هذا حق، ولكن التوبة بالمعنى المسيحي لا بالمعنى الدارج غير المسيحي، وهو التحول وتغيير الفكر وقبول الخبر السار، أي الإنجيل وهو مجيء الملكوت.

يا أخي علينا أن نبدأ ما هو صالح بما هو صالح، لا أن نبدأ بما هو شرير أو فاسد لكي نصل إلى ما هو صالح ومقدس، أي أن نبدأ ليس بجراح الإنسان، بل بحركة الإنسان وقدرته على السير أو تناول الطعام. أما إذا بدأ الإنسان بعدم القدرة، يظل عاجزاً كل حياته. يعني إذا كانت يدك مجروحة، فإن وضع الأدوية ضروري، ولكن عدم الحركة يجعل اليد يابسة، وأنا أقصد إذا كان في القلب خطايا، فإن تحول الفكر،

أي التوبة هو بحثٌ عن الحياة لا الوقوف عند وجع الجراح مهما كانت. طبعاً سوف تعود الجراح، ولكن لا يجب أن ننسى أن يسوع هو الشافي، ونحن نقول في الأوشية: "لأنك أنت هو طبيب أنفسنا وأرواحنا". النفس الجريحة عليها أن تتحرك بما هو صحيح، لا أن تجلس على أنهار بابل وتذكر تسابيح صهيون، وتمتنع عن التسبيح في "أرض غريبة".

قلت: اذن لماذا نصلي هذا المزمور في الأجبية؟

قال: نحن لا نجلس على أنهار بابل إلا إذا كنا بعيدين عن الرب، ولكن المزمور يذكِّر بالغربة، والغربة هي هنا في هذه الدنيا التي ملأها الإنسان بالكثير مما هو غريب عن الله. اذهب إلى أي مكتبة ترى مئات الكتب، هل استطاعت هذه الكتب أن تمنع القتل والزنى والسرقة والكذب؟ أبداً، ولكن نحن "الغرباء في هذا المكان احفظنا في إيمانك وانعم لنا بسلامك إلى النهاية". إن المزمور يذكِّرنا بما نحن فيه بالمقارنة بالشعب القديم، وهي دعوة لكي نَفوق (نستيقظ). أعود فأقول ابدأ بما تحب وغربل (استخدام الغربال) ما تحب، ثم اختر ما يتوافق مع الرب، وعليك ان ترى، أي أن تفرز ما إذا كان اختيارك هو للرب أم لذاتك فقط. إن ما تحب يا أخي هو البداية، وما تحب لا يجب أن يكون الرب يسوع واحد من الذي أو الذين تحبهم هو الرب والسيد، والايمان الصحيح بأن يسوع رب، هو الايمان بأن تضع كل شيء تحت سلطانه. عندما نضع ما نحب تحت سلطان الرب، فإننا في الطريق، أي طريق الاتحاد، نكتشف ما هو ضروري وما هو غير ضروري، وبذلك نكون قد عبرنا من بوابة الفروض والشريعة والتقوى المزيفة الى حرية أولاد الله.

إنتهى الحوار الأول ويليه الحوار الثاني.

د. جورج حبيب بباوي